THE AGA KHAN UNIVERSITY

eCommons@AKU

Faculty & Staff Publications

Institute for the Study of Muslim Civilisations

Spring 7-2021

مقامات الأولياء والصالحين في الواحات Saints and Sufi Shrines in an Egyptian Oasis (Dakhla)

Walid Ghali
walid.ghali@aku.edu

Follow this and additional works at: https://ecommons.aku.edu/uk_ismc_faculty_publications

Part of the Islamic Studies Commons

Recommended Citation

Ghali, W. (2021). مقامات الأولياء والصالحين في الواحات Saints and Sufi Shrines in an Egyptian Oasis (Dakhla). *Memory of Egypt Magazine (ذاكرة مصر), 44*, 38-41.
Available at: https://ecommons.aku.edu/uk_ismc_faculty_publications/48

مقامات الأولياء والصالحين في الواحات

أ. د. وليد غالي

منذ آلاف السنين، وواحات مصر الغربية عامرة بالخيرات من مياه جوفية وزراعة وحياة برية جنبًا إلى جنب مع المواقع الأثرية من كل العصور، وعشائر مسالمة تجمع بين الأصالة والمعاصرة، وبين العلم والإيمان. ورد اسم الواحات في معظم كتب الرحالة والجغرافيين، فأشار ابن حوقل مثلًا في كتابه «صورة الأرض» إلى أن أسرة آل عبدون كانت تحكم مملكة الواحات من زمن سابق لدخول العرب إلى مصر في عام ٦٤٠م، وكانت الواحات الداخلة هي عاصمة المملكة ومقر الأسرة الحاكمة. «عمل على أبواب بعض مدائنها أربعة أصنام من نحاس، لا يقرب منها غريب إلا أُلقي عليه النوم والسبات فلا يزال نائمًا حتى يهلك».

ولم تزل الحكايات والعجائب تنتقل من كتاب لآخر فيصفها المقريزي في كتابه «المواعظ» في الصفحة رقم ٤٣٢ على لسان ابن وصيف شاه، فيقول: «إنّ قفطريم بنى المدائن الداخلة، وعمل فيها عجائب منها الماء القائم كالعمود، لا ينحلّ، ولا يذوب، والبركة التي تسمى فلسطين، أي صيادة الطير، إذا مرّ عليها الطير سقط فيها، ولم يمكنه الخروج منها، حتى يؤخذ، وعمل أيضًا عمودًا من نحاس عليه صورة طائر إذا قرب الأسد أو الحيات أو غيرها من الأشياء المضرّة من تلك المدينة صفر تصفيرًا عاليًا، فترجع تلك الدواب هاربة، وعمل على أربعة أبواب هذه المدينة، أربعة أصنام من نحاس لا يقرب منها غريب إلا ألقي عليه النوم، والسبات، فينام عندها، ولا يبرح حتى يأتيه أهل المدينة، وينفخون في وجهه ليقوم، وإن لم يفعلوا ذلك لا يزال نائمًا عند الأصنام، حتى يهلك». وتكررت هذه القصة عند ابن إياس المصري في ذكر الواحات في كتابه «بدائع الزهور في وقائع الدهور» في الصفحة رقم ٢٣ من الجزء الأول.

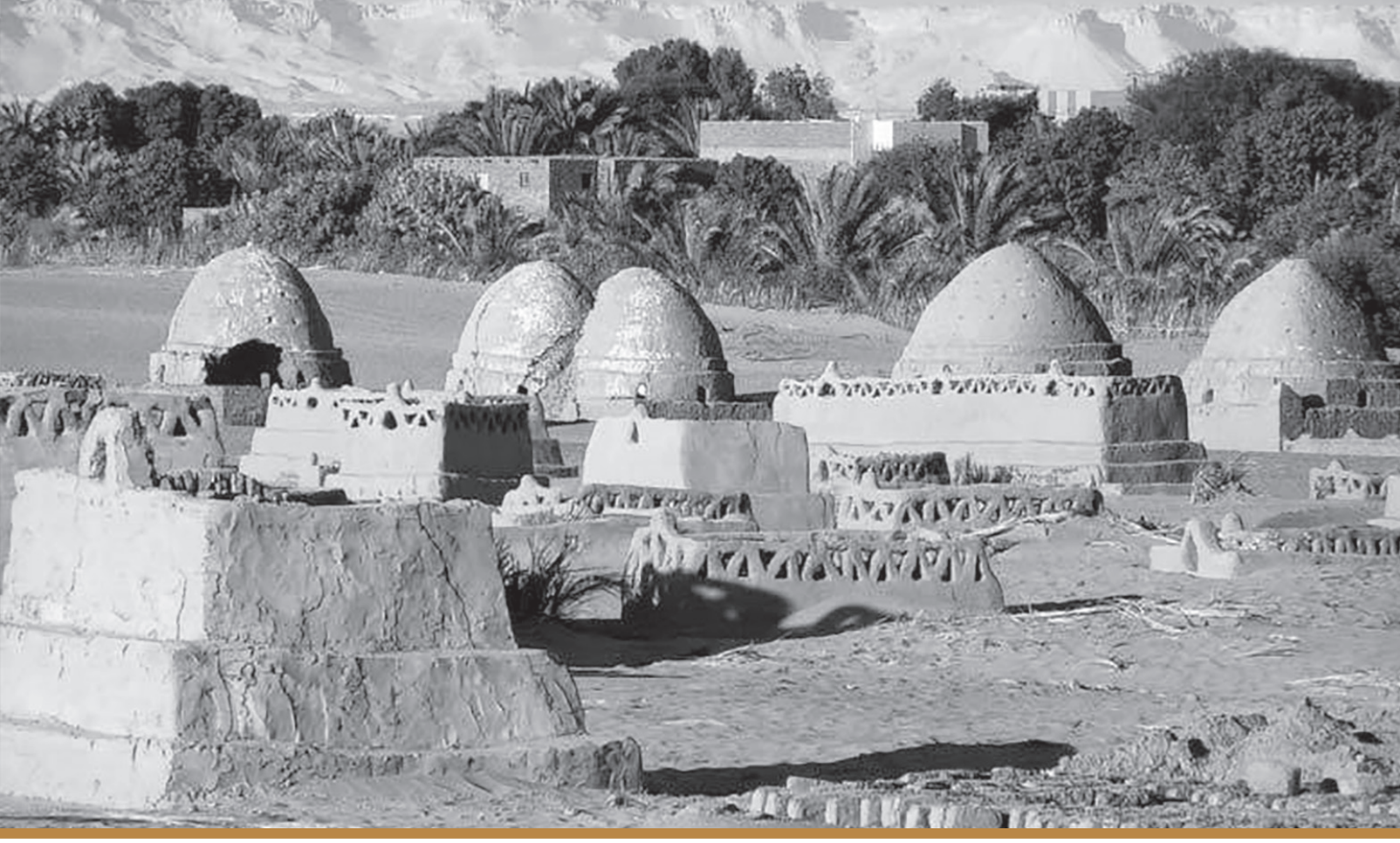

المقامات والأضرحة في الواحات الخارجة.

العبادات في الواحات

كانت العبادة السائدة في الواحات في عهد الأسر هي عبادة الإله آمون الذي أقيم له معبد على مسيرة ثمانية كيلو مترات نحو الجنوب الغربي من قرية القصر ويعرف بدير الحجر، عُبدت فيه إلى جانبه زوجته المعروفة بأم الآلهة المصرية جميعًا «موت» التي أقيم لها معبد في مدينة سُميت باسمها وتعرف الآن باسم «موط» وهي إحدى أكبر المراكز في الواحات الداخلة. وعند وصول الإسلام إلى الصحراء الغربية، كانت القصر مركزًا حضاريًّا لاستقبال القبائل الإسلامية التي وفدت إلى الواحات عام ٥٠هـ، فبنوا عليها قرية على التراث الإسلامي ما زالت قائمة تشهد على التقاء الحضارات والثقافات. وتظل قباب أضرحة الصالحين والمتصوفين أحد تلك المعالم الأساسية؛ حيث لا تخلو قرية من قرى الواحات من ضريح أو أكثر. وما يميز هذه الأضرحة قبابها التي تمتزج مع المعالم الأخرى، وتقف شامخة على أطراف القرى كأنها حُراس تحمي البشر والزرع وعيون المياه.

لا يوجد فرق إن كنت مسافرًا إلى الواحات عن طريق وادي النيل عبر محافظة أسيوط، أو عن طريق الواحات البحرية. فأي الطريقين سلكت، وما إن تقترب من الواحة الكبرى (الخارجة) أو البحرية من الجهة الأخرى سيجذبك حتمًا شكل القباب الصغيرة في كل مكان، منها ما يعرف اسمه ومنها ما هو مجهول، ومنها الشامخ الذي صمد أمام كل عوامل التاريخ والجغرافيا، ومنها الطاعن في السن الذي لم تبقَ منه إلا أطلال.

ويذكر العالم ألكسندر هوسكينز في كتابه عن الواحات عام ١٨٣٢م متحدثًا عن الواحة الكبرى (الخارجة) أن تلك القباب كانت تبنى للكبراء أو الصالحين من أهل الواحات، وكان يتخذها الناس مزارًا يدعون فيه بالبركة والشفاء لاعتقادهم في ذلك الأمر. ومن الجدير بالذكر أن تاريخ معظم هذه الأضرحة غير معلوم لدى العامة والمثقفين على حدٍّ سواء. إلا أن هناك روايات وقصص حولها متداولة بين عامة الناس المهتمين بها.

مقامات الشيوخ

يوجد في الواحات عديد من المقامات والأضرحة لعدد من الشيوخ والعلماء، التي ذاعت شهرتها بدرجة كبيرة مما جعلها مقصدًا للزائرين، ومكانًا لإقامة الموالد وحلقات الذكر والحضرة. ومن المقامات المشهورة في الخارجة على سبيل المثال ضريح الشيخ «سعيد» والشيخ «صبيح».

وهناك ضريح «الشيخ سعيد»، الذي يؤكد عدد كبير من أهالي الواحات أنه لرجل جاء من السودان مع القوافل المارة بطريق درب الأربعين واستقر بمدينة الخارجة، وكان يعمل خادمًا عند عائلة، وأنه كان رجلًا صالحًا ولم يتزوج، وكان بيته مفتوحًا للغرباء

مقام الباويطي في الواحات البحرية.

واشتهر بكرمه وضيافته، ورآه كثيرون في أحلامهم خاصةً الذين يخدمون ضريحه ويتولون إقامة الحضرات وليالي الذكر. ومن أشهر الروايات الخاصة بهذا الضريح أنه قديمًا كانت هناك عين ماء جارية به تسمى «الخرشوبة» أو «عين سعيد»، وكان الرجال والأمهات يأتون بأطفالهم المرضى ويضعونهم فيها لكي يُشفوا.

أما الشيخ عبد الله بالواحات الخارجة فهو الحاج عبد الله بن الحاج عامر المنموني بلدًا، والواحي منشأً ووطنًا، والمالكي مذهبًا، والحـربـاوي نسـبًا. وهو صاحب شرح آجرومية الشيخ خالد في علم اللغة العربية عام ١١٨٣هـ/ ١٧٦٩م. ومن الواضح أن الشيخ عبد الله لم يكن رجلًا عاديًا، بل كان إمامًا في علوم الدين الإسلامي، مما جعل أهل الخارجة يبنون قبة كبيرة بعد وفاته تكريمًا له كما كان الاعتقاد السائد حينها. ولا أعلم إن كانت شهرة هذا الشيخ جعلت أهل الواحات الداخلة يقيمون له قبة على ربوة عالية في قرية العوينة أم أن هناك شيخًا آخر بالاسم نفسه.

ويتصدر المشهد في الواحات البحرية مقام الباويطي أو كما يطلقون عليه سيد الأولياء؛ حيث سُميت أهم مدينة باسمه؛ لما عُرِف عنه من علم وتقوى. وهو يوسف بن يحيى الإمام الجليل أبو يعقوب البويطى المصري الذي جلس على مقعد الإمام الشافعي بعد وفاته؛ لأنه كان أعلم تلاميذه. ذكره السبكي في الطبقة الأولى من طبقات الشافعية «وقد كَانَ إِمَامًا جَلِيلًا عابدًا زاهدًا فَقِيهًا عَظِيمًا مناظرًا، جبلًا من جبال العلم والدّين، غَالب أوقاته الذّكر والتشاغل بِالعلم، غَالب ليله التَّهَجُّد والتلاوة، سريع الدمعة». (كتاب طبقات الشافعية الكبرى للسبكي، ص١٦٢).

لا يختلف الأمر في الواحات الداخلة، فأضرحة القباب في كل مكان سواء بين العيون والآبار أو في قفر الصحراء، وسميت بعض القرى بأسماء المشايخ الذين بقيت قبابهم أول ما يراه المسافر في تلك القرى؛ مثل الشيخ عبد الله، والشيخ والي، والشيخ مفتاح، والشيخ عتمان. ووُجِدت قباب أخرى تحمل أسماء شيوخ يُعرفون بأسمائهم؛ مثل الشيخ جمعة، والشيخ أحمد، والشيخ محمد، والشيخ بدران، وغيرهم كثيرون. ويظل مقام الشيخ «أبيض» والشيخ «خضر» من أكثر الأضرحة التي يقبل عليها الأهالي كل فترة يسألونها البركة أو التوسل بها لحل مشكلاتهم، ويؤمن بعض الأهالي أنها علاج للعقم وبركات للمتزوجين.

القادمون من المغرب

تعد قرية القصر الإسلامية من أغنى المواقع الأثرية بالقباب والأضرحة والمساجد الأثرية. ولعل السبب في انتشار هذه الأضرحة والمقامات بقرية القصر بالتحديد واستمرار بعض العادات المتعلقة بها إلى الآن هو أنها كانت نقطة التقاء لطرق مواصلات قديمة، كما أنها كانت الطريق الرئيسي للقوافل التجارية والحجاج القادمين من المغرب العربي الذين يسلكون طريق الصحراء للوصول إلى الأراضي الحجازية. ولعل ذلك

مسجد نصر الدين بقرية القصر الإسلامية.

ما يفسر وجود عدد كبير من الأضرحة والمقامات لعدد من المحاربين والمشايخ الذين تنحدر أصولهم من شمال إفريقيا. فقد اختار بعض المغاربة الإقامة في الواحات عند عودتهم واستقروا بها، ويبدو ذلك في تشابه بعض العادات والتقاليد بشكل عام، والمعتقدات الصوفية بوجه خاص فيما يتعلق بالأضرحة والذكر وإقامة الموالد بين الواحات والمغرب العربي. ويُعد ذلك دليلًا على أن الواحات كانت من أغنى الأعمال كما ورد في كتب الرحالة كما ذكرنا سابقًا.

وللحركة السنوسية واحتكاكها بالواحات عام ١٨٧٠م دور كبير في نشر التصوف في الواحات الداخلة عن طريق الشيخ محمد الموهوب، وعلى اسمه سميت قرية الموهوب بالداخلة، والشيخ مبروك، في قرية القصر الإسلامية، والشيخ رضوان محمد السمالوسي، في قرية أسمنت، وفي الأخيرة وحدها أكثر من ضريح للشيخ السنوسي السمالوسي من قبيلة سمالوس بليبيا، ويقام له مولد كل عام.

أما ما يُروى حول هذه الأضرحة، فيختلف من قرية إلى أخرى ومن جيل لجيل لآخر. ويروي خدام المقامات والأضرحة بالمحافظة، أن العرائس المقبلة على الزواج ما زالت تقبل على المكان قبل بدء زفافها؛ وذلك تبركًا بمقام صاحب الضريح. كما أن الآباء يأتون بأطفالهم المرضى؛ ليتباركوا بالضريح، بالإضافة إلى أن كثيرًا من النساء والرجال المصابين بالعقم يزورون الضريح. فيما يرى آخرون أنها خرافات وأكاذيب يؤمن بها مَن يتردد على زيارتها وأنها محرمة أيضًا حسب رأيهم. وينسب لشيخ الطريقة البرهامية بالوادي الجديد أنه قال: «إن زيارة المقامات والأضرحة من العادات الموروثة بين أهالي الواحات، ونشطت منذ الحركة السنوسية وتمركزهم بواحة الداخلة، فانتشرت الأضرحة ببعض القرى؛ مثل أسمنت، والشيخ علوان، والبرابخ، وأولاد عبد الله، والقصر الإسلامية، ومدينة موط».

ولهذه القباب وأصحابها في الحكايات الشعبية نصيب كبير، فمنهم من كانت له كرامات يستأنس بها عابرو الصحراء والعاملون في حقولهم في جوف الليل. ومن أشهر المرويات أن الأهالي كانوا يشاهدون ضوء فانوس يدور حول الضريح، وكأن أحدًا يتجول بجوار شجر النخيل المحيط بالضريح ويحرس الجوار، وكان ذلك في أوائل القرن الماضي، قبل توصيل الكهرباء إلى المكان. وتلك حكاية مرتبطة بمعظم أصحاب القباب في الواحات الداخلة والخارجة والفرافرة والبحرية. حتى إن أحدهم ذكر لكاتب المقال أنه لم يعد يستطيع أن يجلس في حقله بعد مغيب الشمس كعادته في الماضي، والسبب في ذلك أنه يعتقد

أن روح الشيخ يحيى الطاهرة (وهو صاحب أحد المقامات أو الأضرحة في قرية الهنداو مركز الداخلة) قد فارقت المكان وبقيت القبة خاوية. والآن أصبح الضريح مهدمًا مهملًا بعد أن كان الناس إلى وقت قريب يضعون فيه النذور ويقرأون الأوراد.

إن التصوف في الواحات المصرية موضوع بكر يحتاج إلى دراسات؛ من حيث إنه ظاهرة دينية وشعبية وفلكلورية. وبرغم كل هذه الأضرحة، فلم تعد هناك موالد لمعظم المشايخ كما هو الأمر في الدلتا والصعيد. ولكن تظل الحركة الصوفية في الواحات جزءًا لا يتجزأ من الحياة اليومية، وما زالت الحضرة أو ما يعرف بالمولد تُقام في كل المناسبات الدينية والاجتماعية المختلفة بل أسبوعيًّا. ويعتقد البعض أن تلك الأضرحة حول الآبار ومزارع النخيل ما هي إلا بركات الصالحين الذين يحرسون الواحات من المشكلات. وإن جف بئر هنا أو هناك، فهذا يعني أن روح الشيخ الطاهرة فارقت المكان؛ لأن الناس يتنازعون كثيرًا.